الفصل الأول

(شخصية العقاد ، وشاعريته)

1 ـ العقاد الإنسان .
2 ـ العقاد الشاعر .

obeikandl.com

obeikandl.com

- 1 -

العقاد الإنسان

ما زالت الحركة الفكرية والأدبية والنقدية في العصر الحديث تدين بالكثير للأديب والمفكر الراحل عبَّاس محمود العقاد ؛ بما أعطاه ، وما يزال يعطيه ، رغم رحيله ، وبما أثراه ، وأثاره ، وحوَّل الأنظار إليه .

وُلِدَ العقاد في مدينة أسوان ، بأقصى صعيد مصر ، ظهر يوم الجمعة ، الموافق الثامن والعشرين من شهر يونية ، سنة (1889م) ، وقد حظيت أسوان بتلالها الرملية ، وأشعة شمسها اللافحة بطفولته ، ورحلته الأولى مع الحياة ، ومن ثمَّ أحبَّها حُبَّاً شديداً ؛ لما أورثته من خصال ، كان لها أثرها الكبير في بنائه لشخصيته ، لذا نراه يمجدها دائماً ، فيقول فيها : " هي بلدة خالدة ! بل هي بلدة مخلدة ! لأن معالم الخلود في الهياكل والتماثيل مستعارة من محاجرها ؛ فهي كالزمن حين تهب الخالدين مادة الخلود .. تلك هي بلدي أسوان . لم تكن قط شيئاً هملاً في عصر من العصور .. "[1].

نعم ، أحبَّ العقاد أسوان ، ولو كانت له من أمنيات في عالم الغيب لتمنى مطمئناً أن يُولد بها ، يقول : " ولدت فيها بمشيئة القدر ، ولو أني ملكت الأمر لولدت فيها بمشيئتي ؛ لأنها الموطن الذي يُستفاد منه خير ما أثرته لنفسي من النظر إلى الحياة "[2].

وقد نشأ العقاد في أسرة متوسطة ، وكان أبوه محمود إبراهيم مصطفى العقاد ، مصرياً ، من محافظة دمياط ، وكان جده لأبيه يعمل بصناعة الحرير ، لذلك سُمِّي العقاد ، يقول في ذلك :

" أمَّا اسم (العقاد) ، فأذكر أن جدي لأبي كان من أبناء دمياط ، وكان يشتغل بصناعة الحرير ، ثمَّ اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى ؛ حتى يتخذها مركزاً لنشاطه ، ومن هنا أطلق عليه الناس اسم (العقاد) ، أي الذي يعقد الحرير .. والتصقت بنا ، وأصبحت علماً علينا "[3].

---

(1) عبَّاس محمود العقاد - أنا - دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - 1996م - ص34 .

(2) السابق - ص35 .

(3) السابق - ص25 .

لكن والد العقاد لظروف عمله نراه يعيش ويستقر بأسوان ؛ حيث كان يعمل أميناً للمحفوظات بإقليم أسوان .

وكان رجلاً شديد التدين ، كثير القراءة في الكتب الدينية ، يحافظ على أداء الصلوات الخمس بالمسجد ، بدءاً بالفجر ، وانتهاءً بالعشاء ، ومن ثمَّ فرض على ابنه الصغير إقامتها ، فيوقظه معه في الفجر ، ويصحبه للمسجد لآدائها ، ممَّا دعا الصغير إلى العصيان والتمرد ، لا لأجل الصلاة ، ولكن نزوعاً للتحرر من القيد ، ورفض النفس لما فُرض عليها ، ولم تقبله بإرادتها . هذه هي الصورة التي رسمها العقاد لوالده ، صورة التدين والأمانة والنزاهة ، صورة من لا يحب المال ، صورة الجاد كل الجد ، يقول عنه العقاد :

" كان يدين بالجد في الواجب ، أو الشدة في الجد ، وكان يرى للطفل ما يراه للشيخ "[1]، خاصة إذا كان الأمر فريضة واجبة ، أو عملاً محموداً ، أو عُرفاً مأثوراً ، يُستحب القيام به ؛ إعلاءً للقيمة ، وإبرازاً للمكانة المرجوة .

ومن ثمَّ كان حينما يرى العقاد جالساً بين أقاربهم وجيرانهم من النساء – يُنادي عليه ، ويُعاتبه على جلوسه بينهن ، ويحثه جاهداً على أن يجلس بين أقرانه وأمثاله ، ومن هم الأمثال الذين يتحدث عنهم ؟

إنهم شيوخ فوق الأربعين والسبعين ، على درجات متفاوتة من العلم والثقافة ، يجلسون مع أبيه ، يتحدثون في القضايا السياسية والاجتماعية وغيرها ، وقلما يمرحون أو يتفكهون .

وقد كان لهذه الجلسات الفائدة الكبيرة على العقاد فيما بعد ؛ إذ أحسَّ بكيانه ، فكأنه رجل ، وهو ما يزال طفلاً صغيراً ، يقول في ذلك : " وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تأتي من التوقر قبل سن الوقار "[2].

ويؤكد العقاد على أن الفائدة الكبرى التي عادت على بنائه الفكري بالخير من تلك الجلسات – هي معرفته بالقاضي أحمد الجداوي ، وهو من علماء الأزهر الشريف الذين لازموا الشيخ جمال الدين الأفغاني ، وكان من زملاء الإمام محمد عبده في طلب العلم بالأزهر ، وقد أبعدته الحكومة إلى أسوان ، وكان مجلسه مجلس علم وأدب[3].

---

(1) السابق - ص25 .
(2) السابق - ص26 .
(3) راجع : السابق - ص50 : 53 .

وهكذا ، فقد حرص والد العقاد على أن يجعله رجلاً منذ طفولته ، وكان لأبيه ما أراد ، فشبَّ رجلاً ، ورث عن أبيه خصالاً حميدة ، بقيت معه ، وصارت فيما بعد مكوناً من مكونات شخصيته .

ولم يكن هذا الوالد يغضب لشيءٍ قدر غضبه لكرامته ، وسمعة اسمه ، من ذلك أنه كان يمتلك حماراً ، يتنقل عليه من قرية لأخرى ، لمَّا كان يعمل معاوناً للإدارة ، فلمَّا استقرَّ به الحال باعه ، وكان ذلك الحمار معروفاً بسرعته وهدونه ، فكان الناس يستعيرونه من ذلك الرجل الذي اشتراه ، قائلين له : (هات حمار العقاد) ، وما لبثت أن أصبحت : (هات العقاد) ، فانزعج والد العقاد ، وغضب لسمعته ، وسمعة اسمه ، وصمم على شراء الحمار من الرجل ، وقَبِلَ المغالاة في ثمنه ؛ حفاظاً على سمعته .

لأجل هذا وذاك نراه معروفاً بين الناس بالوقار ، والأخلاق الفاضلة ، يقول عنه العقاد ، ذاكراً فضله :

" وجملة ما أذكره لذلك الأب الكريم أنني مدين له بالكثير ، وإنني لم أرث منه مالاً يغنيني .. ولكن استفدت منه ما لا أقدره بمال "[1].

ولتكتمل تلك النشأة التي من الممكن أن توصف بالتدين ، نجد أن تدين الأب صنوه لدى الأم ، التي يرجع نسبها إلى أحد رجالات الأكراد ، وهو (عمر أغا) ، الذي " كان قائداً في جيش محمد علي ، الذي ذهب لفتح السودان ، وتأديب (نمر) ملك شندي ، الذي أحرق إسماعيل ابنه ومن معه في الحملة الأولى للسودان ، سنة **(1821م)** "[2]، فنكلوا بالملك الغادر شرَّ تنكيل ، وقتلوا من جنوده ما يقرب من عشرين ألفاً ؛ انتقاماً لإسماعيل .

وبعد فتح السودان عاد ذلك الجد ليستقر في أسوان ، وكان معه ابنه الأكبر (محمد أغا) ، والد والدة العقاد ، وكان رجلاً شديد التقوى ، يوصف بالقوة البدنية ، وقد ورث كل ذلك عن أبيه ، إضافة لأنفته ، واعتزازه بكرامته ، وقد ورثت والدة العقاد بدورها كل تلك الصفات عن جدها وأبيها[3].

---

(1) السابق ـ ص29 .

(2) عامر العقاد ـ لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ 1968م ـ ص40 ، وراجع : أنا ـ ص30 : 33 .

(3) راجع : أنا ـ ص31 وما بعدها .

لذا كان العقاد منذ أبصر الحياة يراها تحافظ على الصلوات الخمس ، وتؤديها في أوقاتها ، على عكس عادة المرأة الشابة . كما كانت تحسن تدبير كل شيء بالمنزل ، وكثيراً ما تصنع من المهمل شيئاً يُستعمل ، يقول العقاد : " ورأيت والدتي في عنفوان شبابها تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم وتطعم المساكين ، وقلما نرى نساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين "[1].

وقد كان أديبنا يحب أمَّه حباً كبيراً ، وكان يقول لها : لو وجدت لي زوجة مثلك تزوجت الساعة ، وقد ورث عنها الكثير من الخصال ، يقول :

" ولقد ورثت منها كثيراً ، إلا القصد في النفقة ، وتدبير المال ، وحسبي بحمد الله ما ورثت عنها "[2].

نشأ العقاد هذه النشأة الدينية ، وهي ليست غريبة على تلك الآونة – بين أبوين شديدي التدين ، ممَّا كان له الأثر الكبير على حياته فيما بعد .

وقد تلقى العقاد مبادئ القراءة والكتابة ، ومن ثمَّ حفظ القرآن الكريم بكُتَّاب القرية ، حتى إذا بلغ السابعة من عمره ألحقه أبوه بمدرسة أسوان الابتدائية ، وكان لهذه المدرسة دور كبير في حياته الأدبية ؛ إذ أنمت لديه الموهبة الإنشائية ، أو كما يقول هو : " بدأت الكتابة بموضوعات الإنشاء في المدرسة "[3]، وكانت هذه الموضوعات تتسم غالباً بالمفاضلة بين شيئين ، وبرع العقاد التلميذ فيما يكتب من مفاضلات ، وكان عادة يختار أضعف الجانبين ، وكان أستاذه الشيخ فخر الدين محمد يحمد اختياره ، ويعرض كراسة تلميذه النجيب على كبار زوار المدرسة ، ومن هؤلاء الإمام محمد عبده ، يقول العقاد :

" وكان لنا أستاذ فاضل (هو الشيخ فخر الدين محمد) ، يحمد هذا الاختيار ، على أن يكون من قبيل مرانة القلم ، ويعرض كراستي على كبار الزوار ، بين ما كان يعرضه من كراسات التلاميذ ، فلمَّا زارنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ذات مساء ، أراه الكراسة ، فتصفحها باسماً ، وناقشني في بعض مفاضلاتها ، ثمَّ التفت إلى الأستاذ ، وقال ما أذكره بحروفه : ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعدُ .."[4].

---

(1) السابق - ص 122 .
(2) السابق - ص33 .
(3) السابق - ص38 .
(4) السابق - ص39 .

وقد كان العقاد مغرماً بالقراءة والاطلاع منذ حداثته ، فنراه يأخذ مصروفه وهو ذاهب إلى المدرسة ، لا ليشتري به ما يشتريه أقرانه ، بل يشتري كتباً أو كتاباً ، وقد كانت الكتب تُباع في محل قريب من المدرسة ، وكان إذا وجد ثمن الكتاب أغلى ممَّا معه ، نراه يعطي ثمنه لصاحب المحل على مراحل ، كلما تتوفر معه نقود !

وبهذه الطريقة قرأ العقاد العقد الفريد ، وغيره من أمهات الكتب ، وبها أيضاً كوَّن مكتبة كبيرة ، وبها قرأ للشعراء الإنجليز ، وهو بالسنة الرابعة من المرحلة الابتدائية ، كما أتاحت له الوفود السياحية التي تأتي إلى أسوان فرصة إقامة الصداقات مع البعض منهم ، ومراسلتهم ، والتعرف على أدبهم ، خاصة الإنجليز منهم ، وهكذا أتيحت له فرصة إتقان اللغة الإنجليزية ، خاصة أن تدريس العلوم في المدارس آنذاك كان باللغة الإنجليزية ، ومن ثمَّ ساعده ذلك على الاتصال منذ فترة مبكرة من حياته بالأدب الإنجليزي[1].

وكان للعقاد طموحات كثيرة ، وكان يحلم بأن يكمل تعليمه ، لكنه ما إن أتمَّ دراسته الابتدائية ، وحصل على شهادتها سنة **(1903م)** ، حتى رأى أبوه أن يلحقه بإحدى الوظائف الحكومية (الميري) ، ولم يجد العقاد مفراً من أن يطيع والده .

وقد أحبَّ العقاد الكتب منذ حداثة سنه ، قراءة واطلاعاً[2]، وكان ذلك بدافع فطري ، وغذته أشياء ثلاثة ، جعلته كاتباً ، وهي التشجيع ، والظروف ، والرغبة ، وهذه هي الأشياء الثلاثة التي يؤمن العقاد أنها جعلت منه كاتباً[3].

ولاشكَّ أن ظروف العقاد التي أحاطت به في صغره – كان لها الدور الأكبر في توجيهه وتيسير طريق نبوغه ؛ من حيث مجالسة أصدقاء والده ، وهم كما قلنا شيوخ فوق الأربعين والسبعين ، على درجات متفاوتة في سُلم العلم والثقافة ، ثمَّ ما كان يجري في هذه الجلسات ، من حديث ونقاش ، يأخذ مناحٍ كثيرة ، ومتعددة ، والعقاد في كل ذلك يستمع ، وينمو فكره ، وتنضج شخصيته ، شيئاً فشيئاً ، وقد أكد العقاد على فضل هذه الجلسات ، لكنه أكد أكثر على أن الفائدة الكبرى منها كانت في تعرفه على الشيخ أحمد الجداوي ، وقد تأثر به العقاد كثيراً ، دون غيره ممَّن يجالسون والده ، وكان دائم الاعتراف بفضله ؛ فقد كان للشيخ الجداوي التأثير الكبير عليه ، وكان العقاد بدوره شديد الإعجاب به ، ويرى أنه واسع المعرفة ،

---

(1) راجع : السابق - ص39 : 41 .
(2) راجع : السابق - ص68 : 70 .
(3) راجع : السابق - 39 ، 57 : 60 .

وكان يرى أنه أستاذه الوحيد الذي فُرض عليه ، فقبله بإرادته ، كما قبل كل أساتذته الذي اختارهم بنفسه ؛ متخذاً منهم القدوة والمثال ، وإن بقي للشيخ الجداوي أن مجالسه هي التي حبَّبت الأدب لنفس العقاد ، فهوى حفظ الشعر ، ومطالعة كتب الأدب[1].

وهكذا بدأ العقاد حياته الأدبية وهو في التاسعة من عمره ، وكان مدرس اللغة العربية قد طلب منه قصيدة في فضل العلوم ، يقول في ذلك :

" بدأت حياتي الأدبية وأنا في التاسعة من عمري ، وكانت أول قصيدة نظمتها في حياتي هي قصيدة مدح العلوم ، وقلت فيها :

علــمُ الحِسَابِ لــهُ مَزايا جَمَّةٌ ... وبهِ يزيدُ المــرءُ في العِرْفـانِ
والنحو قنطرةُ العُلوم جميعهَا ... ومبينُ غامضَهَا وخيرُ لسَانِ
وكذلكَ الجغرافيا هَادية الفتى ... لمَســالكِ البلدانِ والوديانِ
وإذا عَرَفتَ لسَانَ قومٍ يا فتى ... نلتَ الأمانَ بهِ وأيَّ أمَانِ "[2].

ولم يكن عدم إكماله التعليم عائقاً أمامه ، بل ربما كان دافعاً له ؛ لكي يصنع أشياء كثيرة ، فقد انتفع بالثقافة الذاتية ، والاطلاع الشخصي ، الذي انطلق مُتعمقاً في كافة العلوم الإنسانية ، بل إنه تعلم اللغة الإنجليزية وأجادها ، ممَّا يسَّر له التعرف على آداب الغرب ، ومن ثمَّ يمكننا أن نقول باطمئنان إن ثقافته تعدُّ ثقافة موسوعية .

كل ذلك نبع من حبه للقراءة ، وحرصه على أن يثبت ذاته ، وتمرده على كل شيء يحول دون ذلك ، إضافة لما لاقاه من تشجيع ، منحه إياه كل من أدرك نبوغه ، واستعداده الفكري للتميز .

وقد عُرف عنه دائماً في جميع مراحل حياته اعتداده بنفسه ، حتى لتظنه لشدة ذلك متكبراً ، ولكنها الأنفة التي أورثتها إياه بيئته منذ صغره ، حين كان يجلس وهو طفل صغير مع شيوخ فوق الأربعين ، فأحسَّ بكبره رغم حداثة سنه ، وربما ذلك ما يُفسِّرُ لنا ما يروى عنه ، ويعد من نوادر صباه ، أن صبياً سبَّ أباه ، فما كان من العقاد الصبي إلا أن أوسعه ضرباً ولكماً ، فذهب ذلك الصبي يشكو لأمه ، فجاءت الأم تصحب ابنها الباكي إلى (أم عباس) تشكو ما فعله عباس بابنها ، وكان عباس حاضراً ، فبادر أم الصبي قائلاً : " هل سألت ابنك لماذا ضربته ؟ فأجابته :

---

(1) راجع : أنا - ص71 وما بعدها .
(2) أنا - ص24 ، 53 ، وقد كتبت كلمة القافية "بيان" في ص24 ، وكتبت "أمان" في ص53 .

لأنه سبَّ أباك كما بلغني ممَّن شهدوا الضرب ، فلِمَ لم تسبّ أباه كما سبَّ أباك ؟ فردَّ عباس العقاد بزهو غاضباً ، وهل أبوه كأبي "[1].

وانطلاقاً من هذا نستطيع أن نفسّر ما كان يفعله في السابعة من عمره ، بالمرحلة الابتدائية ، حين رفض أن يلبس البنطلون القصير ، كبقية التلاميذ[2]، أو حينما كان لا يجيب المدرس ، حين يُنادي عليه باسم (عبَّاس حلمي) ، جرياً على تقاليد ذلك العهد ؛ حيث كان التلاميذ لا يُنادون بأسماء آبائهم ، بل يلقبون بألقاب ، مثل : (صبري ، حلمي ، لطفي) ، ومن هنا كان العقاد من قليلين ينادون بأسمائهم[3].

فقد كان إباؤه واعتداده بشخصيته ، بل وتمرده أحياناً وتحدّيه – أبرز أسلحته التي دافع بها عن بقائه ومجده ، الذي مازال حياً كائناً ، ومؤثراً إلى اليوم .

لكنه لم يعمل بالأدب والصحافة مباشرة ، بل إنه عمل ببعض الوظائف الحكومية ، لكن عمله بتلك الوظائف لم يثنه عن تطلعه لعالم الصحافة والأدب ، فبعد " وفاة أبيه سنة (1905م) اشتغل بعدة وظائف حكومية ، ولكنها لم تحل دون تطلعه إلى الصحافة ، وولعه بها "[4]، فقد عمل بمصلحة الإيرادات بقنا ، ثمَّ عمل بالقسم المالي بمديرية الشرقية ، يقول العقاد :

" ثمَّ جئت إلى القاهرة للكشف الطبي عندما التحقت بإحدى وظائف الحكومة ، عام (1904م) ، وكان عمري إذ ذاك 15 سنة ، وكانت وظيفتي في مديرية قنا ، ولم تكن اللوائح تسمح بتسنيني ؛ لأنني لم أكن قد بلغت بعد سن الرشد ، ثمَّ نقلت إلى الزقازيق "[5].

ولمَّا انتقل إلى الزقازيق عزم على إخراج صحيفة أسبوعية ، بعد أن عرف تكاليفها ، حين طبع قصيدة له ، ووزعها على أصدقائه ، وفيها يصور شوقه وحنينه لأسوان ، يعارض فيها قصيدة المعري ، التي يقول في مطلعها :

عَلَلاني فإنَّ بيضَ الأمَاني فنيتْ والظلامُ ليسَ بفانِ

فقال في مطلع قصيدته ، وهي على وزن قصيدة المعري ورويها :

---

(1) لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص42 .
(2) راجع : أنا ـ ص97 .
(3) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص46 .
(4) عبَّاس العقاد ناقداً ـ ص93 .
(5) أنا ـ ص24 .

ذكـــرَاني نعيمَها ذكرَاني حبَّذا لو علمتمَا ما أعاني

وقـال فيها في أسوان (لست أرجـو عـوداً إلى أسوان) ، فطبع هذه القصيدة التي ضـاعت ، ولم يبقَ منها إلا ما ذكرناه .

كما أنـه ادَّخر من راتبه مبلغاً من المال ، وعزم علـى إخراج مجلة أسبوعية تحـت اسـم (رجـع الـصَّدى) ، لكنـه تـراجع عـن عـزمه ؛ لمَّـا رأى أن الـصحافة الأسبـوعية الـصالحـة تحـتجب ، ولا تبقـى إلا الفاسـدة فقـط[1]، ومـن ثـمَّ حـاول العمل بالصحافـة اليوميـة ، يقـول : " كنـت أول من كتـب بالصحف يشكو الظلم الواقـع علـى الموظفـين ، ثـمَّ سـئمت وظائـف الحكـومة ، وجـئت إلـى القاهـرة ، وعملت بالصحافة "[2].

ففـي سنـة (1906م) استقال العقاد من وظيفته ، بعد أن ملَّـها ، وضاق بقيودها ، وذهب إلـى القاهرة[3]، فالتحق بمدرسة الفنون والصنائع ، ثمَّ تركها ليعمل بمصلحة البرق ، لكنه أحواله المادية تتعثر ، ممَّا يجبره على العودة إلى أسوان ، تاركاً كتبه القيمة في الغرفة التي كان يستأجرها ، ولم يقدر على سداد إيجارها !![4].

لكنه يعود للقاهرة بعد فترة قصيرة ، يراوده حلم الكتابة والصحافة ، فيُعرض عليه أن يعمل مترجماً بصحيفة اللواء ، فرفض ؛ لأنـه يـريد أن يكـون كاتبـاً ، لا مترجماً ، كمـا أنـه أبـى العمل مـع مـصطفى كامـل ؛ لأن محادثـته الأولـى معـه لـم تشجعه علـى أن يـزامله فـي عمل دائم ، وأظهرته في صورة المعتد بنفسه ، الذي لا يسمح للفكاهة ، أو ما دونها أن تفتح باباً لتصحيح ما يقوله ، أو ما يراه صواباً .

وقـد خـرج العقـاد بذلك الانطبـاع حينما كـان يتبرع بالتدريس ، وذلك حين كان ينتظـر الوظيفة الحكومية التي أرادها له والده ، ولمَّا طال الانتظار تبرع بالتدريس فـي المدرسـة الإسلامية الخيرية بأسوان ، بعد أن عرض عليه ناظرها ذلك ؛ لقطع

---

(1) راجع : عبَّاس العقاد ناقداً ـ ص94 .

(2) أنا ـ ص24 .

(3) راجـع : د. شـوقي ضيـف ـ مع العقـاد ـ دار المعارف ـ القاهــرة ـ سلسلة اقرأ ـ ع (259) ـ د.ت ـ ص21 ، ويذكــر الأستـاذ عامــر العقــاد أنه سمـع العقاد في أكثر من مناسبة يقول إن استقالته كانت سنة (1907م) ، قبل اشتغاله بالدستور مباشرة ، علـى إثر خلاف بينه وبين رئيسه علـى أسلوب الإفادات الحكومية التي حاول العقاد أن يجدد في قوالبها التركية العتيقة ، علـى حين أصرَّ رئيسه علـى الحفـاظ علـى الشكل الموروث . راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص66 .

(4) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص67 وما بعدها .

أوقات فراغه ، وذات يوم حضر مصطفى كامل ؛ ليتفقد المدرسة ، وكانت معه الكاتبة الفرنسية (مدام جوليت آدم) ، والكاتبة الإنجليزية (مسز يونج) ، وكانت الحصة حصة اللغة العربية التي كان يُدَرّسُهَا العقاد ، " فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :

والمرءُ ما لم تفدْ نفعًا إقامتُهُ   غيمٌ حَمَى الشمسَ لم يُمْطِرْ ولمْ يَسِرِ

وترجمه للسيدتين بطلاقة وإيقاع ، ثمَّ طلب من التلاميذ أن يشرحوه ، ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ، ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ، والتفت مصطفى كامل إلى العقاد ، وإلى الأستاذ محمد شلبي مُتسائلاً ، فأدركه العقاد قائلاً : إن التلاميذ معذورون ؛ لأنهم في أسوان يعلمون أن الغيم الذي يظلل الرءوس شيء نافع ، لا يضربون المثل به لقلة النفع به ، فلعله أنفع لهم من شعاع الشمس ، ومن المطر .

وعلى الرغم من حسن التخلص الذي أبداه العقاد لمصطفى كامل ، وكان ينتظر منه أن يتقبله بالاستحسان والارتياح بوصفه خطيباً – فإن مصطفى كامل قد تجهَّم وذوى وجهه ، وحينئذ عرف العقاد أن الاستدراك على مصطفى كامل - ولو من باب الفكاهة - أمر كثير على طاقته النفسية والفكرية "[1].

ثمَّ قبل العقاد أن يعمل بعد ذلك كاتباً بصحيفة الدستور ، مع الأستاذ محمد فريد وجدي سنة (**1907م**) ، الذي وجد بينهما التقاءً فكرياً ، من حيث منهجية العمل ، وعرض القضايا ، ومناقشتها بروح علمية ، تكفل له الحرية الفكرية في طرح ما يروق له ، وقد شجَّعه ذلك على أن يترك وظيفته الحكومية ، فقدم استقالته بديوان الزقازيق .

لكن ذلك الصفاء لم يدم طويلا ؛ فقد ترك العقاد العمل بالصحيفة بعض الوقت ، وذلك على إثر خلاف بينه وبين وجدي ، حين أراد العقاد رثاء مصطفى كامل ، ناقداً مواقفه السياسية تجاه الدولة العثمانية والخديوي ، وكان وجدي لا يريد ذلك ، فشبَّ الخلاف بينهما ، وترك العقاد الصحيفة ، لكنه عاد إليها بعد ذلك ، يكتب بكل حرية ، دون أن يتدخل أحد فيما يكتبه ، وظلَّ على هذه الحال ، حتى صدور آخر أعدادها ؛ فقد تعطلت ، ووقف صدورها ، سنة (**1909م**) ؛ بعد أن اضطر صاحبها إلى تصفية حساباتها ، فباع مؤلفاته بأقل من أثمانها العادية ، ويودع وجدي العقاد ، آسفاً على التداعيات التي أدت لافتراقهما ، وهو يقول :

---

(1) عبَّاس العقاد ناقداً - ص95 ، وراجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة - ص59 وما بعدها .

" أرجو أن نتعاون معاً في عمل صحفي ، نحن أقدر عليه ، وأصلح لـه من الصحافة السياسية ، ويفترق العلامة الكبير والصحفي الناشئ الأديب ، بعد طول مصاحبة ، دامت العامين تقريباً "[1].

ونتيجة لذلك اضطر العقاد أن يبحث عن عمل آخر ، ولم تعجبه الصحف الموجودة آنذاك ، فقرر أن يبيع مكتبته ؛ كي يقتات بثمن كتبها ، وتقلبت به الأحوال ، ووقع فريسة الإعياء ، ووهم التشخيص الخاطئ للطبيب ، الذي قال له : إنه مريض بالصدر ، لذا نراه يشد الرّحال ، عائداً إلى أسوان ، وما يلبث أن يشفى من الإعياء ، ووهم المرض ، ويعود للقاهرة مرة أخرى ، ثمَّ لا يرضيه الحال ، فيهرب من حرارة جوها إلى الإسكندرية ، وهناك يجد فرصة العمل بصحيفة (البيان) ، التي كان يصدرها عبدالرحمن البرقوقي ، وفيها التقى العقاد بهيكل ، والسباعي ، وعبَّاس حافظ ، وطه حسين ، وإبراهيم المازني ، وعبدالرحمن شكري ، وغيرهم من حملة الأقلام في ذلك العصر .

كما تعرَّف العقاد بـ (البيان) على المويلحي ، الذي اقترح عليه أن يوظفه بديوان الأوقاف ؛ ضماناً له من تقلبات الصحافة ، ومن ثمَّ عمل بقلم السكرتاريا ، في وظيفة مساعد لكاتب المجلس الأعلى[2].

وتعرف العقاد خلال ذلك بحافظ عوض ، رئيس تحرير المؤيد ، الذي طلب منه أن يعمل معه ، فقبل العقاد القيام بتحرير الصفحة الأدبية ، لكنه ما لبث أن ترك العمل بها على إثر حادثة ، قام بها أحد محرري المؤيد ؛ إذ أخذ رشوة تحت ادَّعاء أنه محرر الصفحة الأدبية ، فترك العمل بها ، وترك معها العمل بديوان الأوقاف ، ويصبح العقاد مرة أخرى بلا عمل ، ثمَّ يتوسط بعد ذلك أحد أصدقائه ، فيجعله يعمل في أعمال المراجعة للصحف العربية ، بقلم المطبوعات .

واستمرَّ العقاد بهذه الوظيفة فترة ، لكنها لم توافق هوى في نفسه ، فاستقال منها ، وعمل بعدها مدرساً بمدرسة وادي النيل الثانوية ، وواصل عمله كمدرس ، يرافقه المازني ، لكنهما سرعان ما تركا المدرسة ، بعد مشادة مع ناظرها ، حول مسألة تصحيح الامتحانات .

ثمَّ يعود بعدها للصحافة مرة أخرى ، فيعمل بصحيفة (الأهالي) ، وذلك سنة

---

(1) عامر العقاد ـ العقاد : معاركه في السياسة والأدب ـ دار الشعب ـ القاهرة ـ د.ت ـ ص41 .
(2) راجع : السابق ـ ص44 وما بعدها .

(1917م) ، وفي تلك الفترة " تبدأ الدعوة الوطنية تظهر على يد الوفد المصري ، بقيادة سعد زغلول ، فيترك العقاد العمل بالأهالي ؛ ليغامر بقلمه وسط الثوار الأحرار ، بكل قوة وثبات "[1]، وهنا تفتح صحيفة الأهرام بابها للعقاد (1919م) ، فيكتب فيها مجموعة كبيرة من مقالاته السياسية والأدبية .

ثمَّ يشعر العقاد ببعض أمراضه تعاوده ، فيذهب ليداويه هواء أسوان ، وأثناء ذلك يجتهد المازني في إصدار تصريح بإصدار جريدة البلاغ ؛ لتكون لسان الوفد آنذاك ، ويأتي العقاد ليكتب فيها سنة (1923م) ، بعد انقطاعه للكتابة ؛ ليكون بذلك كاتب الوفد الأول ، لكن على إثر خلافه مع زعماء الوفد في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي انضم إلى معارضي الوفد ، وصار من ألمع كتاب هذه المعارضة .

وقد كان العقاد ـ فيما نعتقد ويرى كثيرون ـ صحفياً رائعاً ، قلمه معروف ، ومتميز بين الأقلام في عصره ، أسلوبه ساخر في مهاجمة أعدائه ، كما كان جباراً في منطقه ، ساخطاً في أسلوبه بمقالاته السياسية ، من ذلك ما كتبه في مقالة يندد فيها بما انتهجه محمد محمود باشا ، رئيس الوزراء ، وقد أعلن أنه " سيحكم البلاد بيدٍ من حديد ، فنشر العقاد مقاله الساخر ، تحت عنوان (يد من حديد ، ولكن ذراع من جريد) ، وقد تداولته الألسن في كل مكان ، فلم يعد صاحب اليد الحديدية يردد هذه الكلمة ، كما أنه نشر عدة مقالات يشبه فيها إسماعيل صدقي باشا ، رئيس الوزراء في جبروته ، وسطوته بشارلي شابلن ، وقارن بينهما مقارنة طريفة "[2]، وبالتالي كانت المصادرة والإغلاق مصير كل تلك الصحف ، التي ينشر فيها العقاد مثل هذه المقالات .

والعقاد بهذا كان سياسياً ، رغم قلة ما قيل عنه في هذا الإطار ؛ فلقد " غلبت عليه صفة الأديب المفكر الفيلسوف ، على كونه سياسياً "[3]، إضافة إلى أنه لم ينتم لحزب سياسي ، ومن ثمَّ فهو سياسي ـ كما يُقال ـ مستقل ؛ وهو كما يؤكد العوضي الوكيل :

لم يكن " في يوم من الأيام حزبياً ، ولا انتمى لحزب من الأحزاب ، وفي ندوته سأله سائل يوماً عن ذلك ، فأجابه : أنه لم يكن عضواً في حزب من الأحزاب ، وكل ما هنالك أنه كان في وقت من الأوقات عضواً في الهيئة البرلمانية الوفدية ،

---

(1) السابق ـ ص57 .
(2) راجع : السابق ـ ص44 وما بعدها .
(3) شعر العقاد ـ ص101 .

بحكم أنه كان عضواً في مجلس النواب ، وانتخب على مبادئ سعد ، وأنه وهو عضو في البرلمان قد أبدى آراء كثيرة ، مخالفة لآراء حزب الوفد ، لا تزال تحفظها مضابط البرلمان "[1].

وقد عُيِّنَ عضواً بمجلس الفنون والآداب ، كما عُيِّنَ بالمجمع اللغوي ، لكنه مع ذلك ، ومن أجل حبه للصحافة والأدب والكتابة – يرفض التقيد بوظيفة ؛ فقد رفض أن يعمل مديراً لدار الكتب ، كما رفض عمادة كلية الآداب ؛ حتى لا يشغل وقته بغير الكتابة والقراءة ، وحتى لا يكون موظفاً ، يتحكم فيه رئيس ، أو من هو أعلى منه !!

رفض العقاد التقيد بتلك الوظائف وغيرها ، وبقي مخلصاً لما يحب ، وظلَّ يبدع في مجالات عدة ، أدبية ، ونقدية ، وفكرية ، وفلسفية ، وغيرها ، إلى أن توفي في الثاني عشر من مارس سنة **(1964م)** ، عن خمسة وسبعين عاماً .

توفي العقاد دون أن يتزوج ، مع أنه أحب ثلاث مرات ؛ أحب الأديبة اللبنانية (مي زيادة)[2]، وأحب الفتاة الجميلة (أليس/ سارة)[3]، وأحب فتاة التمثيل السمراء (هنومة خليل)[4]، لكنه فشل في كل تجاربه ، وعند ذلك كره المرأة ، وهاجمها هجوماً عنيفاً ، ورأى أنها غير وفية ، طُبعت على الغدر ، وجُبلت على الخيانة ، يقول في ذلك :

خَـلِّ المَلامَ فليسَ يثنيهَا — حبُّ الخداعِ طبيعةٌ فيها
هو سترها ، وطلاءُ زينتها — ورياضةٌ للنفسِ تحييهَا
وسلاحهَا فيمَا تكيدُ بهِ — من يصطفيهَا أو يعاديهَا
وهو انتقامُ الضعيفِ ينفذهَا — من طولِ ذلٍّ باتَ يشقيهَا
أنتَ الملومُ إذا أردتَ لها — ما لمْ يردهُ قضاءُ باريهَا
خُنْهَا ولا تخلصْ لهَا أبداً — تخلص إلى أغلى غواليها[5].

ويقول :

---

(1) د. العوضي الوكيل ـ العقاد والتجديد في الشعر ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ د.ت ـ ص63 .

(2) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص185 : 230 .

(3) راجع : السابق ـ ص230 : 247 .

(4) راجع : السابق ـ ص248 : 261 .

(5) عباس محمود العقاد ـ أعاصير مغرب ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ 1997م ـ ص42 .

openarab.com

وفَـاءُ بنـــاتِ حـــواءٍ قيودٌ   تُصاغ لهنَّ من طبعٍ وعُرْفِ
فمَا فيهنَّ مُخلصةٌ لأخـــرى   ومـا فيهـنَّ مُخلصَـةٌ لإلـــفِ
تطيـعُ على اضطرار كلّ أنثى   ولا تصغـي لعهدٍ أو لحلفِ[1].

لكننـي أرى من ناحيـة أخـرى أن تجـارب الحب فـي حياة العقـاد ، ونظـرتـه للحب والمرأة – بعيـدة كل البعد عن تفكيره في الـزواج ، ومن ثمَّ فمحاولاته التي فشل فيها في الحب لم تكن سبباً لعدم زواجه ، بل سبب ذلك هو ما ذكره العقاد نفسه ؛ فقد سُئل عن سـر عدم زواجـه ، فقـال : إنـه " حين أراد الـزواج لم يجد الوسـيلة ، وحـين توفـرت الوسـيلة انعـدمت الإرادة ، فلـم تجـتمع لديـه الوسـيلة والإرادة معاً "[2].

وكـان يقـول : إنـه " لا يكـره الـزواج ولا يأبـاه ؛ فهـو سـنة الحـياة ، والطـريق الطبيعي لقيام الأسرة ، ولكنه طبع على ألا يشاركه أحد في حياته ، ولا يطيق هذه المشاركة التـي يراها عسيرة عليه ، وعلى من تريد أن تشاركه هذه الحياة ، إنني لا أريد أن أعذب امرأة معي ، ولا أريد أن تعذبني امرأة معها "[3].

توفـي العقاد ، لكنه مازال يعيش بيننا بآثاره التي تخلده ، خاصـة دواوينه العشرة التـي لا يعرفها الكثيرون ، بل إن الكثيـرين لا يعرفونه شاعراً ، مع أن العقاد نفسه كان يؤمن أن ما سيبقى هو شعره ، وما عداه فمن الممكن أن يُنقد ويُبَدَّل .

ولا أجد مـا أختم بـه حديثـي عن العقـاد الإنسان إلا كلماتـه التـي يقول فيها عن نفسه ، وقيمته :

" وقبل أن تتحطم هذه الأوثان ، يظهر في هذا البلد مخلوق وأي مخلوق ، وقل إن شئت إنسان وأي إنسان ..

أديب مشهور ، وليس بليسانس ولا دكتور .

وعضو في مجلس الأعيان ، ليس في حوزته نصف فدان ..

وليس ببيك ولا باشا ، ولكنه يقول للبيك والباشا : كلا وحاشا ! ..

---

(1) عبّاس محمود العقاد ـ بعـد الأعـاصير ـ دار العودة ـ بيروت ـ لبنان ـ 1982م ـ ص18 .
(2) العقاد والتجديد في الشعر ـ ص77 ، وراجع : أنيس منصـور ـ في صالـون العقاد ، كانت لنا أيام ـ الهيئـة المصرية العامة للكتـاب ـ إصدارات مكتبـة الأسرة (مهرجان القراءة للجميع / الأعمال الفكرية) ـ 2006م ـ ص428 : 444 ، ص426 : 485 ، ص611 : 629 .
(3) العقاد والتجديد في الشعر ـ ص78 .

وصاحب أعوان وأنصار ، وما هو بزعيم حزب ، ولا بصاحب عصبية ، ولا مصطبة ، ولا دوار ..

وفقير جد فقير ، ولكن ليس بهين ولا حقير ..

وصاحب قلم مسموع الصرير ، مرهوب النفير ، ولكن ليس بصاحب صحيفة ولا بمدير ، ولا برئيس تحرير ، ولا سكرتير تحرير ..

يا حفيظ ..
شيء يجنن ..

ويزيد المغيظين من هذا (المقتحم المتهجم) أن يهاجم (الأصلاء) ، فلا يبالي هجوماً عليه أو يباليه ، ولكنه بإصبع واحدة من إحدى يديه يرده على عقبيه ..

يا حفيظ .. شيء يجنن .. شيء يغيظ !

ولقد أراحنا الله من هذه الأوثان في عالم الرتب والنياشين ، وبقي الطقم الأخير من أوثان الألقاب والمظاهر في عالم (العلم) المحجوز على ذمة المعاهد والدواوين .. "[1].

هذا هو العقاد في لمحة إنسانية عامة ، لكن لنا أن نتساءل عن أهم الصفات التي ميَّزت شخصيته .

ومن ثمَّ نقول إن هناك العديد من الصفات التي أعطت لشخصية العقاد تفردها وتميزها بين غيرها من الشخصيات البارزة آنذاك[2].

ولاشك أن الثبات والإصرار والصلابة من أهم تلك الصفات التي منحت شخصية العقاد تفردها[3]، ولها الفضل الكبير فيما وصل إليه ؛ فقد صنعت منه شخصية قوية متماسكة ، تمتلك إرادة وعزيمة ، قادرة على العطاء ، صانعة للمستحيل ، دون خوف ، أو تردد ، طالما أن هناك ثمة أمل في الوصول إليه ، وتحقيقه ، ولاشك أن البيئة الأسوانية قادرة على أن تورث أبناءها مثل ذلك .

ثمَّ تأتي صفة أخرى ، وهي العزلة والانطواء ، وهي صفة غالبة على طبيعة العقاد منذ صغره ، يقول عنها :

---

(1) أنا ـ ص103 وما بعدها .
(2) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص271 : 276 ، ص315 : 341 .
(3) راجع : أنا ـ ص18 : 20 ، ص169 وما بعدها .

" ولقد ورثت طبيعة الانطواء عن أبي وأمي ، فلا أملُّ الوحدة ، وإن طالت ، ولا أزال أقضي الأيام في بيتي على حدة ، حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات ، بل اللحظات ، ولكني أشغل وحدتي بالقراءة والكتابة "[1].

ويقول العوضي الوكيل عن انطواء العقاد ووحدته :

" كان يبقى أحياناً في منزله أسبوعاً ، لا يغادره ، ولم يكن يؤثر ذلك على لقاء أصدقائه وتلاميذه ، ذلك لأنه عاش بالكتابة وللكتابة ، وفرضت عليه ظروف حياته أن يعيش قارئاً كاتباً ، ومن هنا كانت العزلة التي لا اختيار له فيها "[2]، وصارت ملازمة له ، حتى قبلها مُختاراً .

واللافت أن هذه الصفة يندر ألا نراها كمكون أساسي في شخصية أحد المبدعين ، سواء في مجال الفكر أو الأدب .

ومن صفاته أيضاً التواضع والرحمة واللين ، وإن كان العقاد يقول عن ذلك :

" إنني لا أزعم أنني مفرط في التواضع .

ولكنني أعلم علم اليقين أنني لم أعامل إنساناً قط معاملة ، صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أنني أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ، ولو لم تكن بيني وبينه صلة مكان ، أو زمان ، كما حاربت هتلر ، ونابليون ، وآخرين .

وأنا لا أزعم أنني مفرط في الرقة واللين .

ولكنني أعلم علم اليقين أنني أجازف بحياتي ، ولا أصبر على منظر مؤلم ، أو على شكاية ضعيف "[3].

ولكن تلامذة العقاد المقربين يشهدون بما أشار إليه أستاذهم ، وها هي نعمات فؤاد تقول : إن العقاد " رجل مفرط في التواضع ، ورجل مفرط في الرحمة

---

(1) لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص18 ، وراجع : أنا ـ ص20 وما بعدها ، ص168 وما بعدها .
(2) العقاد والتجديد في الشعر ـ ص63 .
(3) أنا ـ ص16 وما بعدها ، وراجع حتى ص20 .

واللين ؛ ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ، ورجل لا يفلت لحظة في ليله ونهاره بين سلطان القلب والعاطفة "[1].

كما أن الفكاهة من أهم ما يميز شخصية العقاد ، وفكاهته لها سماتها التي ميزتها ؛ فهي " حاضرة على البديهة ، وهي تارة بلسم جراح ، وأخرى عدة من عدد الكفاح ، وهي تصلح لمساجلة الأصدقاء ، كما تصلح لمناجزة الأعداء "[2].

ومن مداعباته وتفكهه مع الأستاذ توفيق الحكيم ، أن الحكيم عندما أخرج مسرحيته (يا طالع الشجرة) ، وهي من نوع اللامعقول ، وجد نفوراً كبيراً منها ، وقد صَرَّح العقاد ، وطه حسين بهذا النفور ، وعَبَّرَ كلٌّ منهما بأسلوبه ؛ فـ (طه حسين) رأيناه صريحاً مريراً ، بينما العقاد نراه يظهر عدم رضاه في صورة ، تحمل من المداعبة والممازجة الكثير ، يقول توفيق الحكيم :

" فأرسلت إلى العقاد الطبعة الثانية من كتاب كنت أعلم أنه يحبُّه ، هو كتاب (ذكريات الفن والقضاء) ، الذي ظهر في طبعته الثانية باسم (عدالة وفن) ، بعد أن زدت فيه فصولاً ، وكتبت له في الإهداء أداعبه بقولي : إني أرسل إليه كتاباً محبوباً لديه ، عوضاً عن الكتاب الآخر المكروه ، وهو (يا طالع الشجرة) ، فجاءتني منه هذه الرسالة القصيرة ، وقد أشار فيها إلى فصل في الكتاب (عدالة وفن) "[3]، يقول العقاد في هذه الرسالة :

".... ولعلَّ كراهة كتاب من كتبكم تهمة أجزى عليها بالتصييف على حسابكم ، ولكن بغير السلاسل والحلاوة الطحينية "[4]، ويقصد بذلك ما فعله الحكيم مع مجموعة من المساجين ، أتوا بهم إلى الحكيم ، وهو في المصيف برأس البر ، حينما كان وكيلاً للنيابة ، وهم في السلاسل ، وكانوا جائعين ، فأمر لهم بخبز ، وحلاوة طحينية على حسابه .

وهكذا فالعقاد كما تقول نعمات فؤاد : " رجل وسع شدقاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابلن "[5].

---

(1) د. نعمات أحمد فؤاد ـ الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ د.ت ـ ص155 .
(2) عبَّاس العقاد ناقداً ـ ص183 .
(3) توفيق الحكيم ـ وثائق من كواليس الأدباء ـ كتاب اليوم (يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم) ـ ع [120] ـ فبراير(1977م) ـ ص171 .
(4) السابق ـ ص169 .
(5) الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد ـ ص155 .

كما أن للعقاد مهابة ظاهرة ، تُجبر من يراه على احترامه ، وذلك يعني أن تلك المهابة لا تخفى على كل من ينظر إليه ، كما أنه لا يحاول أن يخفيها ، ولا يقدر على إخفائها إن أراد ؛ ذلك " لأن جذورها متمكنة في بنيته ، مهابة طبيعية ، ولدت معه ، وليست مصنوعة ، ومن ثمَّ فإن مهابة العقاد لا تفارقه ، راضياً أو غاضباً ، فرحاً أو حزيناً ، جاداً أو متكلفاً ، مهابة كتب لها الدوام أينما حلَّ ، وأينما ارتحل ، ومع الناس جميعاً في أطوار أعمارهم ، مهابة باحترامه والثقة فيه "[1].

كما أن للعقاد شخصية قادرة على تحمل الآلام ، بل ومحاربتها ، لدرجة أنه لا يستعمل أية مسكنات ، وإن أدى مرضه إلى إجراء عملية جراحية " فإنه يُجريها من غير استخدام للمسكن ، الذي يستخدمه كل إنسان ، وهو البنج "[2].

كما أنه متمرد ، يرفض الإذعان أو السيطرة عليه ، وهاهو المنوم المغناطيسي قد " استطاع أن ينوم كثيراً من الشخصيات ، ولكنه باء بالفشل في تنويم العقاد "[3].

ومن خلائق العقاد أيضاً الحياء ، وهو سمة شخصية ، تدل على يقظة ضميره ، إضافة لكونه لديه " ينبع من الإحساس العارم في النفس بالقوة "[4].

كما أنه يتصف بالشجاعة ، ودليل ذلك أننا نراه دائماً " يجاهر بالصدق والعدل ، ويمقت الكذب والظلم ، ومن هنا فإنه قد وقف نفسه لنصرتها ، يدافع عنها دفاع المستميت ، ويجاهد ، في سبيلها جهاد الأبطال "[5].

والعقاد يمقت النفاق ، ولا يعرف التوسط في الصداقة أو العداء ، وهو القائل :

" لا أعرف إنساناً نصفه صديق ، ونصفه عدو ، وإنما أعرفه صديقاً مائة في المائة ، أو عدواً مائة في المائة ، ولا تهمني مع ذلك عداوته إذا حفظها لنفسه .. ولكنه إذا تعقبني بها ، وأبى إلا أن يكشف عنها ، فهي الحرب ، التي لا توسط فيها كذلك ، إمَّا كاسر وإمَّا مكسور ، إلا أن يريحني احتقاره من عناء هذا وذاك "[6].

---

(1) عبَّاس العقاد ناقداً ـ ص172 .
(2) السابق ـ ص171 .
(3) السابق ، وراجع : أنا : ص18 : 20 .
(4) السابق ـ 174 .
(5) السابق .
(6) أنا ـ ص22 .

كما أن العقاد يتصف بالوفاء لأصدقائه من الأحياء والأموات ، ولذكرياته التي يعتز بها كل الاعتزاز ، وذلك ما حدا به إلى أن يرثي الكلب (بيجو) ، الذي لازمه عامين ، وأدرك جميل صفاته ، فكان صديقه الحميم ، فلما مات بقيت ذكراه عالقة بفؤاد العقاد ؛ حباً ، وتقديراً ووفاءً[1]، ولاشك أن صفة الوفاء مع ما مرَّ من صفات ضرورة لازمة ؛ فمن الاستحالة بمكان لمن اتصف بما مضى ألا يكون وفياً .

كما أن العقاد يوصف بالحِلم والتسامح ، ولا يبدأ بالعدوان أبداً ، فإذا هاجمه أحد فلا يرحمه ، وهو يقول عن نفسه : " ومن صفاتي التي لا يعرفها الناس ، أنني إذا عوملت بالتسامح لا أبدأ بالعدوان ، وإذا هاجمني أحد فلا أرحمه "[2].

والعقاد شخصية متمردة على القديم ، وقد برز هذا التمرد منذ رفضه أن يلبس البنطلون القصير ، وهو بالسنة الأول بالمرحلة الابتدائية ، وتطور معه هذا التمرد ، ووصل إلى الأدب ، فثار على القديم ، ودعا للتجديد ، وأعلن حرباً لا هوادة فيها على القديم ، والمقلدين للقدماء ، كان له فيها ما كان ، وعليه ما عليه .

وهو ـ مع كل ما مضى ـ رجل يغلب الحزن عليه ، لدرجة أنه قد يؤدي به إلى ـ أحياناً ـ حالة من حالات اليأس ، لكنه اليأس الذي لا يمنعه من مباشرة الحياة ، بل وحب الحياة أيضاً .

هذا هو العقاد الإنسان ، وتلك ـ كما بدا لنا ـ أهم الخصال التي ميزت شخصيته على المستوى الإنساني .

---

(1) السابق ـ ص23 ، وراجع : مقدمة قصيدة (بيجو) من : أعاصير معرب ـ ص101 : 112 ، وراجع القصيدة ـ ص113 : 115 .
(2) أنا ـ ص23 .

- 2 -

العقاد الشاعر

لم يكن العقاد ذلك الكاتب الفذ ، أو الباحث الدؤوب ، أو المفكر العميق ، أو المؤرخ ، أو الناقد ، صاحب النظريات والآراء النقدية ، التي كانت الأساس الذي قامت عليه مدرسة أدبية ، لها طرحها التجديدي ، ودورها في مسيرة أدبنا العربي في العصر الحديث ، وهي مدرسة الديوان ، لم يكن ذلك فحسب ، بل كان أيضاً شاعراً مُجَدِّدًا ، له قيمته الشعرية ، وإنتاجه المتميز ، الذي يُمكنه من احتلال مكانة بارزة بين شعراء العربية في العصر الحديث .

وإنتاج العقاد الشعري ليس بالقليل الذي يخفى أو يهمل ، بل هو إنتاج ، له طرحه الفكري ، وتميزه الكيفي ، وكمه الكبير ، الذي وصل إلى عشرة دواوين ، هي كما يلي :

1 - يقظة الصَّباح ، وقد صدر سنة (**1916م**) .
2 - وهج الظهيرة ، وقد صدر سنة (**1917م**) .
3 - أشباح الأصيل ، وقد صدر سنة (**1921م**) .
4 - أشجان الليل ، وقد صدر سنة (**1928م**) .

وقد ضُمت الثلاثة الأولى إلى الديوان الرابع ، وصدر الجميع تحت عنوان **(ديوان العقاد)** ، سنة (**1928م**) ، مع مقدمة للأستاذ. إبراهيم عبدالقادر المازني .

5 - وحي الأربعين ، وقد صدر سنة (**1933م**) .
6 - هدية الكروان ، وقد صدر سنة (**1933م**) .
7 - عابر سبيل ، وقد صدر سنة (**1937م**) .
8 - أعاصير مغرب ، وقد صدر سنة (**1942م**) .
9 - بعد الأعاصير ، وقد صدر سنة (**1950م**) .

ينضاف لذلك (ديوان من دواوين) ، وهو عبارة عن مختارات من الدواوين السابقة ، مع بعض القصائد الجديدة ، وقد صدر سنة (**1958م**) .

10 - ما بعد البعد ، وقد صدر سنة (**1965م**) ، أي بعد وفات العقاد .

وقد ظلَّ يقول الشعر حتى توفي سنة (1964م) ، ومع ذلك لم يُعرف بكونه شاعراً ، مع أنه نفسه ـ كما قلنا ـ كان يميل إلى أن يُعرف عنه أنه شاعر ؛ لأنه كان يدرك أن شعره هو ما سيبقى ، أمَّا ما عداه فمن الممكن أن يُنقض ويتغير .

فلماذا لم يُعرف العقاد شاعراً ، ولماذا بَعُدَ الناس عن شعره ؟

في ذلك آراء كثيرة ، أهمها ، أن بعد الناس عن شعر العقاد يرجع إلى كونه شعراً ذهنياً ، ملينا بالفكر ، مخاطباً للعقل ، خالياً من العاطفة والحيوية ، كما أن صاحبه كان يعتد بكل ما جادت به قريحته ، ممَّا أدى لكثرة المقطوعات في دواوينه ، وكثرة العناوين ، التي لا رابط بينها وبين ما تحتها من أبيات ، إضافة إلى ما يُقال من أنه لم يحقق نقده على شعره[1].

وذلك إن كان فيه بعض الصحة ، ففيه الكثير من المغالطات ، وإطلاق الأحكام العامة ، التي لا تستند إلى قراءة شاملة ودقيقة لشعر العقاد ، بل ربما اعتمدت على القراءة العابرة ، وغفلت عن مزج العقاد الرائع بين الفكر والوجدان ، وما وراءه من فلسفة رائعة ، وربما أن من أطلق تلك الأحكام " يخيل لهم ؛ نظراً لشهرته ككاتب وأديب وباحث ومفكر وفيلسوف – أن شعره ليس على درجة عظيمة من الشاعرية ؛ لأنه لا يتخصص للشعر ، وسبب آخر هو أن العقاد مجدد ، والمجدد دائما يحتاج إلى وقت "[2].

ولن أحاول هنا الرد تفصيلاً على ما وصل إليه بعض النقاد في تفسير سبب بُعْدِ الناس عن شعر العقاد ، لكنني سأكتفي بإيراد رأي الدكتور **طه حسين** ، في شعر العقاد[3]، يقول :

" أنا لا أومن في هذا العصر الحديث بشاعر عربي كما أومن بالعقاد ، تسألوني لماذا أومن بالعقاد في الشعر الحديث ، وأومن به وحده ؟

وجوابي يسير جداً ! لماذا ؟ لأنني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من

---

(1) راجع : د. عبدالواحد علام ـ دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات أخر ـ دار العدالة ـ القاهرة ـ 1991م ـ ص14 وما بعدها .

(2) عامر العقاد ـ مقدمة ديوان ما بعد البعد ـ دار العودة ـ بيروت ـ لبنان ـ 1982م ـ ص11 .

(3) كان ذلك في مسرح الأزبكية بالقاهرة ، مساء الجمعة 27 / 4 / 1934م ، في كلمة ألقاها الدكتور طه حسين ، بمناسبة تأليف العقاد للنشيد القومي ، وقد بايعه بإمارة الشعر بعد موت أحمد شوقي وحافظ إبراهيم .

الشعراء ؛ وإن شئتم فإني لا أجد عند العقاد ما أجد عند غيره من الشعراء ؛ لأني حين أسمع شعر العقاد ، أو حين أخلو إلى شعر العقاد ، فإنما أسمع نفسي ، أو أخلو إلى نفسي ، إنما أرى صورة قلبي ، وصورة قلب الجيل الذي نعيش فيه ، وحين أسمع لشعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربي الحديث ، إنما أرى شيئاً لا أراه عند غيره من الشعراء . تستطيعون أن تنظروا في أي ديوان من دواوين العقاد ، لا أطلب منكم أن تقرؤوا شعره الآن ، إنما انظروا الفهرست وحده ، فسترون من هذه النظرة اليسيرة في هذه الصفحات القليلة أن العقاد شيء آخر ، وأن شعر العقاد شيء آخر ، وأنه أرسل ليتحدث إلى نفوسكم أحاديث لم يتحدث بها أحد من قبل "[1].

ثمَّ يقول ، ناصحاً الأدباء والشعراء :

" صفوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا ، واستظلوا بهذا اللواء ؛ فقد رفعكم لكم صاحبه "[2].

وفيما قاله طه حسين أفضل ما يمكن أن يُقال عن شاعر ، بل إنه ما من شاعر يحب أن يُقال عنه أفضل من ذلك .

لكن العقاد ـ في رأينا ـ مع هذا وذاك يُعدُّ شاعراً من طراز خاص ؛ فقد غلبت عليه طوابع الرومانسيين ، من حب للذات ، وتفردها ، ممَّا يوافق هوى في نفسه ، ينضاف لذلك الحزن العميق ، والشكوى الدائمة ، والهروب من الواقع المؤلم لعالم الحلم ، والفرار للطبيعة ، أو الطفولة الباكرة ، وما دون ذلك من سمات تتفرد بها الرومانسية .

وانطلاقاً من تلك الرومانسية ، واستناداً لقراءة واعية لشعر العقاد ، نستطيع أن نحدد أهم الظواهر الرومانسية المسيطرة على شعره ، ألا وهي ظاهرة الحزن والأسى والشجى واللوعة ، وما ترتب عليها من تداعيات .

فممَّا لاشكَّ فيه أن ظاهرة الحزن تغلف شعر العقاد ، من أوله إلى آخره ، حتى في شعره الذي يبدو فيه مرحاً ، نراه ما يلبث أن يتحوَّل بصورةٍ ما للحزن والشجى واللوعة !

---

(1) العقاد والتجديد في الشعر ـ ص109 .
(2) السابق ، وراجع لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ ص311 .

ومن ثمَّ فأوَّل ما يلفت انتباهنا في شعر العقاد ، هو " تلك النغمة الحزينة البائسة التي توشك أن تلفه بعباءتها ، من أوله إلى آخره "[1].

ولن نتوقف كثيراً أمام الأسباب والدوافع التي تكمن وراء هذه الظاهرة ؛ لأنها ستبدو ضمناً من خلال رصدها ، ونشير إلى أنها ليست بالأمر الغريب على العقاد ، الذي نادى بأن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ، وتعبيراً عنه ، لذا استطاع " أن يقدم في ديوانه صورة صادقة لحياته ، التي غلب عليها القلق والحزن واليأس والضجر "[2].

وقد كانت حياة العقاد كفيلة بأن تطبع شعره بهذا الطابع ؛ فقد لاقى الكثير من أعدائه ، والحانقين عليه ، وكذا ممَّن أحب ، كما مرَّ بالكثير من الأحداث والصراعات التي من شأنها أن تُسكن الحزن في قلبه ، وتجعله يحوم فوق سعادته ، فيحيلها رماداً ، بعد مرارة ولوعة ، ويُغلف شعره حتى يصبح ظاهرة الظواهر فيه .

والعقاد نفسه ـ باعتباره شاعراً ـ يدرك منذ البداية أن الشقاء قدر الشاعر ؛ نظراً للمفارقة الحتمية الكائنة بين ما يحلم به ، وبين ما يواجهه في واقعه ، يقول :

" والشاعر مكتوب عليه الشقاء ، ما دام مطبوعاً على مواهب الشعراء ؛ فهو حاد الخيال ، تصور له قريحته العالم حافلاً باللذة والنعيم ، مترعاً بالصفو ، ودواعي الهناء ، ممَّا لا يصدقه الواقع ، وتريه الناس على صورة من خلوص الضمائر ، وصفاء السرائر ، وطهارة الأخلاق ، تبرهن المعاشرة على خلافها ، وهو لطيف الإحساس ، دقيق الشعور ، يوجعه ما لا يكاد يحسُّ به غيره ...."[3].

فإذا ما جئنا لرصد هذه الظاهرة بصورة إجمالية في شعر العقاد – نراها واضحة منذ فترة مبكرة بديوانه الأول (يقظة الصَّباح) ، وقد غلفته بغلاف حزين ، يُطالعه كل من يتصفَّحه .

ومن هنا نراه يُخاطب السعادة ، وكأن بينه وبينها عداءً كبيراً ، وخصاماً مريراً ، لن تكون بعده مصالحة أبداً ، قائلاً :

---

(1) دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات أخر ـ ص16 .
(2) السابق ـ ص17 .
(3) عباس محمود العقاد ـ خلاصة اليومية والشذور ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ لبنان ـ 1970م ـ ص51 .

مَهْ يا سَعَــادة عنّي		فمَـا أنا مِنْ رجَالِكْ
لا تطمعي اليومَ مني		بالسَّعي خلفَ خيالِكْ
فقدْ سَـألتُـكِ حتى		مللتُ طولَ سؤالكْ
وقدْ جهلتُــكِ لمَّا		سَحَـرتنِي بجمالِكْ
إنَّ الحَـبيبَ بغيضٌ		إذا استعَـرُّ بخالِكْ
فـلا تمُـرِّي ببَالِي		ولا أمـرُّ ببـالِكْ

ثمَّ يُطلق حكمته البائسة ، التي إن دلت ، فإنما تدل على مدى حزنه ، وشقائه ، فيقـول :

أشقـَى الأنامِ أسيـرٌ		مُعَلَّـقٌ بحبَـالِك[1].

ثمَّ نراه يقول في أسى ولوعة ، ممزوجة بيأس من أعياه فقد الأمل ، فصار شقياً ميتاً ، أعماه حزنه عن رؤية كل شيء ، سوى المعاناة والألم والشقاء ، يقول :

جَمَعْتُ شقاءَ العَيشِ في ظلمَـةِ الرَّدَى
فيَـاليَ من مَيْـتٍ شقـيٍّ الخواطـرِ.
أرى الصُّبحَ وهَّـاجَـاً بمقلـةِ نائـمٍ.
ويلحظـةُ قلبِـي بحَسرةٍ سَاهِـرِ.
ومن لي إلى هـذا الوجـودِ بلمْحَةٍ
أراهُ ولـمْ يُغـمِ التـرابُ بصَـائري
فيَـا قلبُ أنفـقْ من ضيَائكَ واحْتَسِبْ
لدى الشمسِ لألاءَ الوجوهِ النواضرِ[2].

ونراه يركن إلى الظلام ، ويفضله على النور ، الذي لن يرى من خلاله إلا وجوهاً خدَّاعة ، منافقة ، لا وجوهاً صادقة ، لذا يركن إلى الظلام ، ويُناغي أشجانه ، ويتسلى بإنشاد شعره ، فيقول :

ولهـَذا الظـلامُ خيرٌ من النـو		رِ إذا كنـتَ لا ترى وجـهَ حـرٌ
هاهنَـا أطلقُ العنَـانَ لأشجَـا		ني وأبكي نفسي وأنشدُ شعري[3].

---

(1) عبَّاس محمود العقـاد - يقظـة الصَّباح - دار العـودة - بيـروت - لبنـان - 1982م - ص16 وما بعدها .
(2) السابق - ص15 .
(3) السابق - ص18 .

ومن هنا نراه يُنادي دمعه ، راجياً امتداد سكبه ؛ ليتابع أحزانه التي لا تنتهي ، مُشيراً في طيّات ذلك إلى سببٍ ، يُعدُّ من أهم أسباب حزنه ، وهو الفشل في الحبّ ، يقول :

يا غـزيرَ الدمـوعِ أينَ الدموعُ
كـمْ تريدُ البُكَـا وما تستطيـعُ
كيفَ سلـواكَ والفـؤادُ بما يُسْـ
ـليـهِ في فاجعـاتهِ مفجُـوعُ
لهفَ نفسـي عليـكَ يا قلبُ يأبى
فيـكَ إلا الكمـُونُ داءٌ وجيـعُ
عَبَـراتٌ ، بَرْءُ الجَوى لو أريقتْ
وسمـامٌ حتّـى تُراقَ نقيـعُ
كمنـتْ فيكَ ، لا تفيضُ ، ولا تبر
دُ ، فالصـدرُ مِنْ شجاها صـديعُ
لو جَرَتْ في السَّحابِ أجفلَ أو يا
زمُ عن سبحـهِ الفضَاءُ الوسيـعُ
نضـبَ الدمعُ أمْ مجاريهِ سُـدَّتْ
أمْ فـؤادي تامـوره مقطـوعُ
كلما رمـتُ في الجـوانحِ مـاءً
هـاجَ للنـارِ بينهنَّ سُطـوعُ
مَنْ يذقْ غصـّةَ الشرابِ فما بي
غصّـةٌ غيرَ أنْ تفيضَ الدمـوعُ
إنمَا الحُزنُ ريضٌ ما استقى الدَّمْـ
ـعَ وأندى الأحزانِ حُزنٌ رضيعُ
يحرقُ الجمـرُ يابسَ الحطبِ الجز
لِ ، ويأبى الحَـريقُ لـدنٌ مريعُ
فيـكَ يا حُـبُّ كلُّ هذا ؟ فبعـداً
لكَ داءٌ ترياقُـهُ ممنـُـوعُ
غمَرَاتٌ ، وخُـدعَـةٌ ، وجهَـادٌ
وسهَادٌ ، وحَسْـرَةٌ ، وولُـوعُ[1].

---

(1) السابق - ص21 .

obeikandl.com

وهكذا فظاهرة الحزن واضحة عند العقاد منذ ديوانه الأول ، وممَّا يؤيد قولنا إحدى مراسلات العقاد لصديقه عبدالرحمن شكري ، في أيام الصفاء الأولى ، التي جمعت بينهما ، قبل الفرقة والاختلاف ، وذلك أثناء إقامة الأخير بالإسكندرية ، وقد غضب كل منهما " من الحياة والأحياء ، فراح يبث شكواه ، ويفصح عمَّا تضمه جوانحه ، من لوعة وأسى ، حتى يصل إلى بيت القصيد :

تاللهِ لو عَلِمُوا لكانَ مكانَنا فيهمْ أعزُّ ، وكيفَ علمُ المقتدي "[1].

وقد لازمت هذه الظاهرة العقاد في دواوينه الأخرى ، ولن نسترسل في الاستشهاد عليها ؛ لأنها تغلب بصورة لافتة على شعره ، لكننا سنكتفي باستشهادين آخرين ، من ديوانه الثاني **(وهج الظهيرة)** الصادر سنة **(1917م)** ، أي بعد عام من إصدار ديوانه الأول **(يقظة الصُّباح/ 1916م)** ، معتمدين فيما دون ذلك على ما سنذكره في فصول لاحقة ، من أشعار تؤيد ذلك بصورة ضمنية في دواوينه الأخرى .

الاستشهاد الأول ، من قصيدة **(شباب مصر)** ، وقد سُبقت بمقدمة نظرية ، تحدَّث فيها العقاد عن شباب مصر ، وقال إن من بينهم توجد " فئة معروفة بنزعاتها الوخيمة ، وأخلاقها الذميمة ، ومجالسهم أضحوكة الأضاحيك في خلوها من الجد ، وافتقارها من معني الرجولة والاحترام ، وهم يجتمعون ويتفرقون ، لا يحدو بعضهم إلى بعض حب وإخلاص ؛ لأن نفوسهم الوضيعة لا تُحِبُّ ولا تُحَبُّ ، ولكنها ضرورة الاجتماع ، ودفع السآمة والنقمة ، تسوق كل منهم إلى مشاجرة من يكره ، ومعاشرة من يؤلمه سرورهم ، ويسره ألمهم .... فما أعجبها من مجالس ، صلتها الكره ، لا الولاء ، ومحورها تبادل الوقيعة والإيذاء ، لا تبادل السرور والصفاء "[2].

وقد عانى العقاد الكثير من معاشرة مثل هذه الفئات ، لذا نراه يقول في أنات حائرة :

كمْ ذا أعاشِرُ من صحبي وأعدائي
مَنْ ليسَ يعقِلُ آمالي وآرائي
قومٌ على كثَبٍ مني ويفضلني

---

(1) دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات أخر - ص17 ، وراجع : يقظة الصُّباح - ص52 .
(2) عبَّاس محمود العقاد - وهج الظهيرة - دار العودة - بيروت - لبنان - 1982م - ص21 وما بعدها .

منهمْ مسافةُ بينَ الليثِ والشّاءِ

لـو كانَ يفـرقنا بعدَ الطلابِ لما
كنا وكانوا سوى نجمٍ وبوغَاءِ

هـمُ الرجَالُ كما قالـوا وليس لهمْ
من الرُّجولةِ إلا فضلُ أسمَاءِ

لا كالرِّجالِ ، ولا كالغيدِ قدْ صغرتْ
أكفهمْ من حُلى بأسٍ وحنّاءِ

لو تستبينُ قذاذاتِ النفوسِ لما
مسّتهُمُ الكفُّ إلا مَسَّ إيماءِ[1].

إن هـذه القصيدة بما أوردناه منها تؤكد حالة الحزن ، وتوصل لبعض الأسباب التي أدت لسيطرتها على العقاد ، ومن ثمَّ يأتي الاستشهاد الثاني من قصيدة (الدنيا الميتة) ؛ ليؤكد على تلك الحالة بصورة صريحة :

عـزيري وهلْ للناقمينَ عـَزيرُ
وأينَ لمخذولِ الفؤادِ نصيرُ

لقدْ مَاتتْ الدنيا ، وقِدْمَا رأيتهَا
عروسا حفافيها عرائسُ نـورُ

نعمْ ماتتْ الدنيا بنفسي ومن يعشْ
وقدْ مـاتتْ الدنيـا فـأينَ يصيرُ

وانطلاقاً من ذلك يصل العقاد إلى قوله الذي قطع كل شك في ذهاب حزن ذلك الملتاع ، فيقول :

نعـمْ ماتتْ الدنيا بنفسي فهـلْ لها
بعطفكِ من بعدِ المماتِ نشورُ[2].

ولأن هذه الظاهرة من أهم الظواهر في شعر العقاد ، فقد ترتب عليها كنتيجة منطقية بعض الظواهر الفرعية الأخرى ، مثل اعتداد العقاد بنفسه ، فنراه يقول :

إني لأصغرُ أرضاً ليسَ يعمرها   من الخلائقِ أندادي وأمثالي[3].

---

(1) السابق - ص23 .
(2) السابق - ص37 وما بعدها .
(3) يقظة الصّباح - ص11 .

obeikandl.com

كما رأيناه يصحب هذا الاعتداد معه بعد الممات ، فيقول :

إذا شيَّعــوني يَــومَ تقضَى مَنيتي
وقــالوا أراحَ اللــهُ ذاكَ المُعَذبا
فـَلا تحمِلوني صَامِتينَ إلى الثّـَرى
فإني أخـَـافُ اللحـدَ أنْ يَتهَيَّبـا[1].

كما تفرَّع عنها أيضاً انطواء العقاد ، بعد يأسه من معاشرة بني الأحياء الخادعين ، حتى صار إلى عزلة واغتراب دائم ، يقول :

أنا الغريبُ ولي بينَ الورى رَحِمٌ   بالرَّغمِ مِنّي وأصحابٌ وجيرانُ[2].

وهكذا ـ كما قلنا ـ نجد ظاهرة الحزن تغلف شعر العقاد كله ، وقد كان لذلك ما يفسِّره ؛ فقد لاقى في حياته الكثير من العداء والحنق والغش والخداع ، خاصة من المرأة التي أحبها ، وفشل في كل تجاربه معها .

ومن ثمَّ فتلك الظاهرة التي تغلف شعره لم تأتِ من فراغ ، أو وليدة إبداع الخيال الشعري ، بل إنها ـ كما قلنا أيضاً ـ من واقع حياته ، التي مُلِئت بالآلام والمحن ، فانعكست واضحة على شعره وغلفته .

وعلى عادة الرومانسيين عندما يجابهون بالواقع المرير ، ويعانون أوباء نفوس البشر ، نرى العقاد يهرب من عالم الأحياء ، ويلوذ بالطبيعة أحياناً ، أو يتمنى العودة للطفولة الباكرة أحياناً أخرى ؛ تسلياً عن آلامه ؛ لما في الطبيعة والطفولة من طهر ونقاء .

ولعلَّ قصيدة (**المزمار**) فيها الدلالة الكبرى على تمنّي الرجوع للطفولة ، واللجوء إلى الطبيعة ، يقول :

أيهَا المُستعِيـدُ صـَـوتاً شَجِيّـاً
حسبَ هـذا الفؤادَ رجـعُ حنينهِ
نفثـَـاتُ المزمـَارِ تذكي أوارا
رابنِــي طــولُ بردهِ وسكــونهِ
وكأنَّ المزمـَـارُ يذكـُـرُ عَهْـدَاً

---

(1) السابق ـ ص41 .
(2) السابق ـ ص32 .

obeikandl.com

كانَ هَمْسُ الصَّبا نجي غصــــونهِ
علَّموهُ ، ومـا بهِ مِنْ غـَـــرامِ ،
أنـّةَ الوَجْـدُ صفـــوهِ وحزينـــهِ
أينَ مِنْ زفـــرةِ المُحِبُّ نسـيـمٌ
طـالمـا هَـــزَّ مهْـــدَهُ بيمينــــهِ
كانَ هــَذا الهَـــوَاءُ طلقــاً فلمَّـا
حبســـوهُ أبكــــى ببـــثِّ أنينـــهِ
أيقـــظ النفسَ والخـواطـرُ وسْنَـى
فنــرَا كـلُّ خاطِــــرٍ مِنْ كمينـــهِ
أنا والرِّيـــحُ مُنشــــدانِ كـــــلانا
يطربُ الناسُ مِنْ خلالِ سجونهِ(1).

وهكذا كانت ظاهرة الحزن ، فإذا ما جئنا لتحديد أهم الظواهر الأسلوبية في شعر العقاد ، سنجد أن الظاهرة الأوضح أسلوبياً هي لجوء شاعرنا إلى المقابلات ، التي قد تقف عند حد الطباق بين لفظين ، وقد تمتد إلى أكثر من ذلك ، وقد تصبح مفارقة ، تلفُّ القصيدة ، وتشطر مضمونها إلى نقيضين متصارعين ، يظهر من خلالهما الإنتاج الدلالي العام بالقصيدة(2).

وإذا كنا قد فسرنا ـ فيما نرى ـ ظاهرة الحزن في شعر العقاد ، وهي تخص المضمون ، فلنا أن نلتمس تفسيراً يرضينا ـ على الأقل ـ لهذه الظاهرة الأسلوبية ، ومن ثمَّ نرى أن التعبير بها يُعَدُّ إظهاراً لنفس قلقة ، حائرة ، يسيطر عليها الاضطراب ، ولا تكاد تستقر على حال واحد ، إضافة لكونها تعبيراً عن موقف خاص ، تجاه كون يمتلئ بالمتناقضات ، وحياة لا تخلو ساعة من الصِّراعات .

ولاشك أن اعتماد العقاد لهذه الظاهرة الأسلوبية قد أعانه " على التعبير عن تلك الحالات ، تعبيراً اتسم بالصدق الفني والشعوري في معظم الأحيان ، كما أنه قد وجد فيه عوضاً عن الاعتماد اعتماداً كبيراً على الصورة الشعرية بأنماطها المجازية المعروفة "(3).

ومن يتصفح شعر العقاد يجده يعتمد اعتماداً كبيراً على المقابلات ، خاصة في

---

(1) السابق ـ ص52 .
(2) راجع : دعوة إلى شعر العقاد ، ومقالات أخر ـ ص54 وما بعدها .
(3) السابق ـ ص55 .

تناوله للمضامين الشعرية الأثيرة لديه ، وهي الحزن والألم والمعاناة ، وما ينضوي تحتها من مترادفات .

ومن يتأمل تلك المقابلات يجدها تمثل لبنة أساسية من لبنات سياق قصيدتها ، ولم تكن لعباً بالألفاظ ، ولا لهواً بالمتضادات ، بل جاءت لترسم صوراً نفسية(1)، تلتحم ببنية القصيدة ، التحام الجزء بالكل ؛ ليظهر الخطاب الشعري في صورة جلية واضحة ، ربما ـ وحدها ـ المقابلة هي ما تسعف في إظهارها بهذا الأداء المؤكّد ـ في محتواه ـ لبنية القصيدة الدلالية .

ومن صور المقابلة الممتدة في جسد القصيدة ، قول العقاد في قصيدة **(حظ الشعراء)** :

ملـــوكٌ ، فأمَّا حالهـمْ فعبيـدُ
وطيـرٌ ، ولكـنَّ الجُـدودَ قُعُـودُ
أقامـوا على متنِ السَّحابِ فأرضهـمْ
بعيـدٌ ، وأقطـارُ السَّمَـاءِ بعيـدُ !
مجـانينَ تاهُـوا في البـلادِ فودَّعـوا
رواحَـةَ هذا العيشِ وهْـوَ رغيـدُ
ومـا سَاءَ حـظُّ الحالمينَ لـو أنهـمْ
تدومُ لهـمْ أحلامهـمْ وتجـودُ
فـوارحمتَا للظالمينَ نفـوسَهُـمْ
ومَا أنصفتهـمْ صُحْبَـةٌ وجُـدودُ
ويُذرونَ مِنْ مسِّ العذابِ دموعَهُـمْ
فيُنظِـمُ منهـا جـوهـرٌ وعقـودُ
بني الأرض كمْ من شاعرٍ في ديارِكمْ
غبيـنٌ ، وغبْـنُ الشّـاعرينَ شديدُ
بني الأرض أولى بالحيـاةِ جميـلةٌ
مُحِـبٌ عليهـا مِنْ حـلاه نضُـودُ
مُحِـبٌ تناجيهِ بأسـرارِ قلبهـا
ومهمـا تردْ في العيشِ فهـو يريدُ
على أنهُ قدْ يبلـغُ السُّـؤلَ خاطِـبٌ

---

(1) راجع : السابق ـ ص55 .

خليٌّ ويـَزْوَى عَنْ هَــوَاهُ عَمِيـدُ[1].

هذا جزء من القصيدة ، ومن يتأملها كاملة ، يجد المقابلة تمتد لنهايتها ، جاعلة إياها على نصفين متقابلين دلالياً ؛ ليظهر العقاد من خلالها حال الشعراء ومعاناتهم في مقابل غيرهم .

ومن نماذج المقابلة أيضاً نورد المثال التالي ، وهو من قصيدة (عِمْ صباحاً ، عِمْ مساء) ، وفيها يصور العقاد الحياة وقد اختلطت فيها الأشياء اختلاطاً عجيباً ، حتى صارت للعبثية أقرب ، يقول :

عِمْ صباحاً ، عِمْ مَسَاءْ … ذهَبَ العمرُ هَبَاءْ
أقبلَ الصُّبحُ ... وولَّى … ومضى الليلُ وجَاءْ
وأخذنا ورددنَا … فحكى الأخذُ العَطَاءْ
ولقينَا أصدقَاءْ … وفقدنا أصدقَاءْ
فشقينَا بولاءٍ … وتملَّينَا عِدَاءْ
وعشقنَا وتركنَا … حُبَّ مَنْ سَرَّ وسَاءْ
مَنْ عشقنَاهُ ومَنْ لمْ … نرهُ قطُّ سَوَاءْ
وعرفنَا الحقَّ أحيا … ناً فلمْ نعرفْ هنَاءْ
وجهلنَا الحقَّ أحيا … ناً فلمْ نجهلْ شقَاءْ
وقتلنَا الجسمَ والرُّو … حَ سقَاماً وشفَاءْ
ثمَّ نمضي حيثُما نمـ … ـضِي سرَاعاً أو بطَاءْ
لمْ نزدْ في الأرضِ مِمـ … ـلوءاً ولمْ ننقصْ فضَاءْ
عِمْ صباحاً يا زمَاني … يا زماني عِمْ مسَاءْ[2].

وهكذا تحدثنا بصورة إجمالية عن شعر العقاد ، فعرَّفنا به ، وأظهرنا أنه يتميز بظاهرتين بارزتين إلى حدٍّ بعيد ؛ الأولى تخص المضمون ، وهي الحزن ومترادفاته ، والثانية تخص الأسلوب ، وهي المقابلة .

غير أن هناك ملاحظة أخيرة ، جديرة بالتقييد ، ألا وهي عناية العقاد بالفكرة ، تلك العناية التي اضطرته كثيراً إلى دعمها بمقدمة نثرية ، قبل بدء النص الشعري ، بصورة تجعلنا منذ البداية نولي اهتمامنا بفكرة معينة ، يوجه العقاد أنظارنا إليها ، ويضعها في بؤرة اهتمامنا .

---

(1) يقظة الصّباح - ص70 وما بعدها .
(2) ديوان العقاد - م1 - ص406 وما بعدها .

وأخيراً ، إذا كان طه حسين قد أثنى على شعر العقاد ، ومنحه إمارة الشعر ، فلنا في ختام ذلك أن نذكر كلمة لعامر العقاد ، في تقديمه لديوان (ما بعد العبد) ، الذي نُشر بعد وفاة العقاد ، يقول :

" وليس أدل على تقدير الأدب لأستاذنا من اختياره مقرراً للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، منذ إنشائه ، وما أبلاه من خدمات جليلة في ميدان الشعر والأدب ، ومهرجانات الشعر ، وإصدار التقاويم الشعرية ، ونشر دواوين الشعراء ، والكتب التي ضمت البحوث التي أُلقيت في المهرجانات ، ومشاركته بنفسه - برغم حالته الصحية - في معظم المهرجانات ، واحتفاء الأدباء به ، من مختلف البلاد والأقطار ، في حفلات المهرجانات الشعرية "[1].

هذا هو عبَّاس محمود العقاد الشاعر ، لكن ممَّا يجدر الإشارة إليه ، إضافة للجانب الشعري ، ودواوينه العشرة ، هو أنه ألَّف عدداً كبيراً من الكتب ، أربت على المائة كتاب ، إضافة إلى مقالاته العديدة ، المتناثرة في بطون الصحف والدوريات ، كلها في موضوعات شتى ، تجمع ما بين الفلسفة ، والفكر ، والأدب ، والنقد ، والاجتماع ، والسياسة ، والبحوث الحضارية ، والجمالية ، وما يتصل بالفنون ، والقصص ، والتراجم الأدبية ، والتاريخية ، والتعريب عن اللغة الإنجليزية[2].

وفي سنة (1960م) مُنِحَ العقاد جائزة الدولة التقديرية في الآداب ، وآخر كتاب صدر له في حياته هو كتاب (جوائز الأدب العالمي ، صدر (1964م) ، أمَّا مقالاته في السجلات ، وفي طليعتها (الرسالة ، والهلال) فلم تنقطع ، وكان قد نظم في منزله ندوة أدبية أسبوعية ، تعقد كل يوم جمعة ، استمرت حتى وفاته ، وقد التقى فيها بعدد كبير من الكتاب المصريين والعرب[3].

---

(1) عامر العقاد - مقدمة ديوان (ما بعد البعد) - ص11 .

(2) راجع في هذا الإطار الدراسة البيوجرافية النقدية البيبليوجرافية التي أعدها الدكتور. حمدي السكوت ، عن العقاد ، ضمن السلسة البيوجرافية النقدية البيبليوجرافية الخاصة بأعلام الأدب المعاصر في مصر ؛ وهي دراسة في مجلدين ، بصفحات هي 1157 صفحة ، ليس فيها إلا عناوين الكتب والمقالات : أعلام الأدب المعاصر في مصر(5) (عباس محمود العقاد) ، سلسلة بيوجرافية نقدية ببليوجرافية - مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ودار الكتاب المصري - القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني - بيروت - ط1 - 1983م - م1 ، م2 .

(3) راجع : مع العقاد - ص12 وما بعدها .